



الفصل السادس

ابن قتيبة وقضية الصراع بين القديم والجديد

ابن قتيبة: من كبار علماء القرن الثالث الهجري، عني باللغة والنحو والحديث والأدب، له مؤلفات عديدة منها كتابا (المعارف) و (أدب الكاتب)، فضلا عن ضروب نشاطه العلمي والثقافي الأنفة الذكر، خص النقد الادبي بكتاب مستقل سماه (الشعر والشعراء)، جعل له مقدمة طويلة، تحدث فيها عن عدد من القضايا والمباحث النقدية المهمة، ومن أبرز هذه القضايا:

- ١- اللفظ والمعنى.
- ٢- القدم والحداثة في الشعر.
- ٣- دراسة بناء القصيدة العربية وتعليل منهج تعدد الأغراض فيها.
- ٤- بواعث قول الشعر.

إما بقية الكتاب فهو تراجم الشعراء، وأفضل تحقيق لهذا الكتاب قام به الاستاذ أحمد محمد شاكر.

١- قضية اللفظ والمعنى: كان الجاحظ قد تحدث في هذه القضية قبل ابن قتيبة وأوقعت نظرته الى الألفاظ والمعاني النقاد في عدم تفهم مقاصده، فذهب بعضهم الى إعطاء الألفاظ حظها ومكانتها ورد جودة النص الشعري إليها، وقد قادتهم هذه النظرة أحيانا الى الفصل التام بين الألفاظ والمعاني وكأنهما عالمان مختلفان غير مترابطين ببعضهما ونجد هذا الفصل واضحا عند ابن قتيبة من خلال تقسيماته لأضرب الشعر فهو يقول إنه تدبر الشعر فوجده أربعة أضرب:

أ- ضرب حسن لفظه وجاد معناه، كقول اوس بن حجر:

أيتها النفس أجملِي جزعا
ان الذي تحذرين قد وقعا

ب- ضرب حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى، كقول الشاعر:

ولما قضينا من منى كل حاجة
ومسح بالأركان من هو ما سح

وشدت على حذب المهاري رحالنا
ولا ينظر الغادي الذي هو رانح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطي الاباطح

ت- ضرب جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه، كقول لبيد:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه
والمرء يصلحه الجليس الصالح

ث - ضرب تأخر لفظه ومعناه ، ويندرج تحته كل الإشعار الرديئة التي تفتقر الى جودة المعاني وجمال الألفاظ كقول الاعشى:

وقد غدوت الى الحانوت يتبعني شاو مثل شلول شلشل شول

ان ابن قتيبة في تقسيمه الشعر الى هذه الاضرب المنطقية المتقابلة ، يعكس نظرتة الى علاقة اللفظ بالمعنى في النص الشعري ، وهي علاقة شكلية في نظره ، لكن هذه النظرة لم يوافقها عليها اغلب النقاد الذين جاءوا بعده ، فقد اخذوا عليه تعليقه على الضرب الثاني من الشعر ، الذي يدل على رفضه لهذا النوع من الإشعار الرفيعة ، فهي وان كانت الفاظها - حسب قوله - أحسن شيء مخارجا ومطالعا ومقاطعا ، لكن إذا نظرت الى ما تحتها من المعنى ، وجدته غير مفيد كما يقول ، فهو لا يعدو القول : (لما قضينا ايام منى من الحج ، وقسمنا أركان البيت ، وشدت الرحال ، على ظهور الابل ، مضينا عاندين الى ديارنا ، ابتدأنا في الحديث ، سارت الإبل في الإباطح والطرق) .

فابن قتيبة قد نثر الابيات هنا، فوجد ان ليس من معنى مفيد تحتها ، وكأنه ينظر هنا الى الشعر على انه فكرة ، أو حكمة يقبلها العقل ، مُغفلاً القيمة التصويرية ، التي يحتل بها الشعر منزلة بين الفنون ، فهو عندما حاول نثر الابيات بحثا عن المعاني اختل جمالها ، وذهب بهاءها واحصاء المتأني من جمال الصورة الشعرية ، وتحولت الى معان مالوفة ، معروفة ، متناسيا ان فضل الشاعر صورته في اخراج هذه المعاني ، لا من خلال الألفاظ فحسب ، إنما من خلال الصورة الفنية التي تنتظم هذه الألفاظ فيها، فتترك اثرا في نفس المتلقي ، أكثر مما لو كانت منثورة ، فكثير من الإشعار الجميلة تفقد جمالها ومعناها المجازي عندما تنثر، فمن السهولة إذن ان تفصل بين اللفظ والمعنى في النص الشعري ، أو نرد الجودة والرداءة فيه الى احدهما دون الآخر ، وإذا كان الامر كذلك فلا بد ان تكون الابيات أعلاه ، التي وصفها ابن قتيبة بجودة الألفاظ لا جيد المعنى ، كذلك لان حلاوة الألفاظ وجمالها تبرز المعنى وتحسنه.

٢ . قضية القدم والحداثة في الشعر:

هذه قضية قديمة ظهرت عند النقاد اللغويين اللذين تعصبوا للشعر القديم، وانحازوا له ، ورفضوا كل محدث ، حتى جاء الجاحظ فانصف المحدثين ، عندما قوم الشعراء على أساس الجودة والإبداع في شعرهم ، من غير النظر الى زمانهم ، وقد تابع ابن قتيبة موقف الجاحظ في هذه القضية ، وظهر موقفه فيها ، من خلال منهجه في تأليف كتابه (الشعر والشعراء) ، الذي تبنى فيه فكرة الجودة الفنية للشعر، الذي يختاره والشعراء الذين يترجم لهم في كتابه ، من دون ان يتأثر بالنزعة البدوية عند النقاد اللغويين، كذلك تابع ابن سلام في كتابه (طبقات فحول الشعراء).

ان ابن قتيبة تبنى موقف الجاحظ من قضية القدم والحداثة ، وطبق دعوته من خلال كتاب ترجم فيه للشعراء المحدثين ، جنبا الى جنب مع الشعراء الجاهليين والإسلاميين والأمويين ، وقد وضع مقياس الجودة أساسا لاختيار الشعراء وترجم لأصحابها فهو لم يتأثر بأراء العلماء واستحسانهم للإشعار (في اختياره) ، بل حكم عليها بالموضوعية ، كذلك لم يتأثر بمكانة الشاعر الاجتماعية ، فاخرج أشعار الكثير من الشعراء والعلماء والولاة ممن غلب عليهم غير الشعر، ولكن شهرتهم واحترام الناس لهم جعلت أشعارهم متداولة.

علل ابن قتيبة منهجه هذا في اختياره الشعر والشعراء في كتابه بحجتين مقنعتين هما :

أ- ان كل قديم كان محدثاً في زمانه ، كما نجد ان كل ما يعد محدثاً في زمن ما ، سيصير قديماً بمرور الأيام والسنين .
 ب- ان الله سبحانه وتعالى لم يقصر العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص بها قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر.
 وبهذا اختار ابن قتيبة الجودة مقياسا في اختيار من ترجم لهم من الشعراء.

٣. قضية بناء القصيدة العربية وتعليل منهج تعدد الإغراض فيها:

وهذه قضية جديدة ، وابن قتيبة هو أول من أثارها فبناء قصيدة المدح ، تحدث فيها ابن قتيبة عن الشكل الفني المتكامل للقصيدة العربية ولا سيما قصيدة المدح ، والنموذج الأكمل لها والذي استقرت عليه وارتضاه النقاد والشعراء ، وعلل مجيئها بهذا الشكل من حيث افتتاحها بالوقوف على الإطلال والانتقال الى الغزل ثم الرحلة الى الممدوح فالإغراض الأخرى، بان مقصد القصيدة، إنما ابتداء بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى، وشكا، وخاطب الربيع ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الضاعين عنها ، ثم وصل ذلك بالنسيب والغزل ، فشكا شدة الوجد ، والام الفراق ، والصبابة والشوق ، ليميل له القلوب ويصرف إليه الوجوه.

٤. قضية بواعث قول الشعر (حالات الشاعر) :

من المباحث المهمة التي سجلها ابن قتيبة في مقدمته ، ما يتعلق ببواعث قول الشعر ، والعوامل المعينة على بعث الغريزة الشعرية أو تنشيطها ؛ فبين - اولاً - ان الغريزة الشعرية قد ينتابها الكلل والخمول في بعض الأحيان ، مثل ما ينتاب الإنسان في حياته العادية (وللشعر تارات يبعد فيها قريبه ، ويستصعب فيها ريبه ، وكذلك الكلام المنثور في الرسائل والمقامات وغيرها) ، فالغريزة الشعرية - شأنها في ذلك شأن النشاط الإنسان - قد ينتابها الخمول فيعاني الشاعر من عصيانها ما يعاني ، ويحاول ان ينشط ذهنه ، ويذكر فكره ، ويتمثل ابن قتيبة بالفرزدق الذي تمر عليه ساعة ، ونزع ضرر أسهل عليه من قول بيت شعر ، وهو اشعر قريرش! ، وقد روى ابن رشيق في عمدته : ((أن الفرزدق كان إذا صعبت عليه صياغة الشعر ، ركب ناقته ، وطاف خاليا منفردا وحده في شعاب الجبال ، وبطون الأودية ، والأماكن الخربة الخالية)).

ولم يكن ابن قتيبة أول من وقف على هذه النماذج ، ولا أول من أشار إليها ، فقد سبقه الى ذلك بشير بن المعتمر في صحيفته ، التي أوردها الجاحظ في كتابه البيان والتبيين ، والتي أورد فيها نصائح للمتأدب والشاعر ، كان منها تصبير المتأدب فترة نشاطه الفكري ، فان لم تسعفه موهبته على الإبداع أمهلهما، ولجأ الى ترويح النفس وغريزته.

ويتناول ابن قتيبة هذا الجانب المتعلق بمجالات الأديب والمبدع ، فيتحدث عن الأوقات التي تعين الشاعر على استرسال موهبته ، وصفاء ذهنه فذكر منها ((أول الليل قبل تغشي الكرى ، ومن صدر اليوم قبل الغداء ، ومنها يوم شرب الدواء ، ومنها الخلوة في الحبس والمسير، ولهذه العلل تختلف أشعار الشاعر ، ورسائل الكاتب)).

فحالات الشاعر النفسية ، وأوضاعه الشخصية ، تؤثر في إبداعه ومدى إجادته ، وما على الشاعر إلا ان يعين قريحته ، ويختار ما يلانمها، ويهيئ لها الجو النفسي للنشاط والوعي ، وهناك أقوال أخرى لشعراء

تحدثوا عن الدوافع التي تبعثهم على قول الشعر ، وهنا يأتي حديث ابن قتيبة في هذا الموضوع مهما ، إذ يجمع فيه الأسباب الداعية الى قول الشعر ، من خلال رصده لأقوال الشعراء وتجاربهم.

كل هذه الإخبار التي أوردها ابن قتيبة عن الشعراء تدلنا على انتباهه على هذا الجانب من عملية الإبداع الشعري ، التي يكون فيها للظروف النفسية ، اثر كبير على غزارة إنتاج الشاعر أو فتوره ، ويسترعى به إصغاء الإسماع إليه ، لان النسيب قريب من النفوس ، وقد دعا الشعراء المحدثين الى الالتزام بهذا الشكل التقليدي في بناء قصائدهم قائلا : ((الشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب)) ، فابن قتيبة هنا لا يريد للمحدثين ان يقفوا على القصور المشيدة ، لان القدماء وقفوا على الإطلال والرسوم الصافية ، ويرحلوا الى الممدوح على حمار أو بغل ويصفوها ، لان القدماء رحلوا على الناقة أو البعير ، أو يقطع للممدوح منابت النرجس والأس والورد ، لان المتقدمين جروا على قطع الشيح والقيصوم والعرار ، وكذلك عليهم ان يراعوا مسألة التناسب بين الموضوعات المتعددة في القصيدة الواحدة .

يظهر لمن يلاحظ موقف ابن قتيبة من الشعراء الذين يحاولون الخروج على شكل القصيدة التقليدي ، انه يشبه موقف القدماء المتعصبين للشعر القديم ، إذ انه يجعل بنية القصيدة التقليدية طوقا لا يبيح للشاعر المحدث الخروج عليه ، لا لشيء إلا لأن القدماء انتهجوه ، مما يفهم منه إصراره على الالتزام بحرفية الشكل التقليدي للقصيدة العربية ، وقد وصف هذا الإصرار بأنه تناقض مع دعوته الى إنصاف الشاعر المحدث ، الذي يرى ابن قتيبة ان من حقه ان يفسح المجال أمامه للتعبير عن حياته الحضرية بأساليبها ومظاهرها المتعددة .